لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ :« فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ » يَقُولُ إِنَّ الِاسْمَ الْمَوْصُولَ جَاءَ بِشُمُولِ الْعَذَابِ لَوْلَا أَن قيده كاف الخطاب .

التَّفْسِيرُ

ثُمَّ أَخَذَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ جِنَايَةٍ يَتَعَلَّقُ مُعْظَمُهَا بِفِعْلِ أَسْلَافِ الْيَهُودِ ، مَعَ بَقَاءِ الْحَظِّ الْوَافِرِ مِنْهَا لِمَنْ عَاصَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْيَهُودِ ، وَالتَّصْدِيرُ بِجُمْلَةِ الْقَسَمِ يُشْعِرُنَا بِأَهَمِّيَّةِ الْمَذْكُورِ ، بَعْدَهَا قَالَ تَعَالَى :« وَلَقَدْ آتَيْنَا **مُوسَى** » بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ « **الْكِتَابَ** » وَهُوَ التَّوْرَاةَ ، نَزَلَ عَلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً « **وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ** » أَيْ مِنْ بَعْدِ مُوسَى « **بِالرُّسُلِ** » أَيْ بَعَثْنَا رُسُلًا عَلَى آثَارِهِ ، كَثِيرَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، كَيُوشَعَ وَاسْمُوعِيلَ وَشَمْعُونَ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَشُعَيْبَ وَعُزَيْرَ وَحِزْقِيلَ وَإِلْيَاسَ وَلِيسَعَ وَيُونُسَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى « **وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ** » جَمْعُ بَيِّنَةٍ ، وَهِيَ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ ، الدَّالَّةُ عَلَى

صِدْقِهِ، كَإِبْرَاءِ الأَكْمَهِ وَالأَبْرَصِ، وَإِحْيَاءِ المَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَرْقِ العَوَائِدِ «وَأَيَّدْنَاهُ» فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، وَسَدَّدْنَاهُ وَقَوَّيْنَاهُ «بِرُوحِ القُدُسِ» المَنْفُوخِ فِيهِ مِنْهُ، فَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ رُوحٌ مُتَجَسِّمٌ، فَلِهَذَا يَعْمَلُ الأَعْمَالَ، وَحِكْمَةُ تَخْصِيصِهِ بِذَلِكَ دُونَ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الرُّسُلِ لِمَجِيئِهِ بِالنَّسْخِ لِكَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ، المُتَمَكِّنَةِ مِنَ القُلُوبِ أَشَدَّ صَلَابَةً مِنَ الحَدِيدِ، فَهِيَ أَبْعَدُ مِنْ أَنْ تَنْقَادَ بِالدَّلِيلِ، فَلِهَذَا جَاءَ بِالبَيِّنَاتِ وَأَمَّا مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الرُّسُلِ لَمْ تَكُنْ بِعْثَتُهُمْ إِلَّا تَقْرِيرًا لِأَحْكَامِ التَّوْرَاةِ، فَكَانَ احْتِيَاجُهُمْ لِلْبَيِّنَاتِ أَخَفَّ مِنِ احْتِيَاجِ المَسِيحِ إِلَيْهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ لِلرَّسُولِ مِنَ الخَوَاصِّ مَا يُبَايِنُ بِهِ مَنْ سَبَقَهُ، سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ، وَلَنْ تَخْرُجَ خَوَاصُّهُ عَلَى مَا فِيهِ مُبَايِنَةٌ لِلنُّفُوسِ وَشَهَوَاتِهَا، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ» يَا مَعَاشِرَ اليَهُودِ «بِمَا لَا تَهْوَى» أَيْ تَشْتَهِي «أَنْفُسُكُمْ» الخَبِيثَاتُ «اسْتَكْبَرْتُمْ» فِي أَنْفُسِكُمْ عَلَى أَنْ

تُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ «فَفَرِيقًا» مِنَ الرُّسُلِ «كَذَّبْتُمْ» بِمَا جَاءَكُمْ عَنْهُمْ كَمُوسَى وَعِيسَىٰ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ «وَفَرِيقًا» مِنْهُمْ «تَقْتُلُونَ» كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَغَيْرِهِمَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَكْفِكُمْ فِيهِمْ مُجَرَّدُ التَّكْذِيبِ، وَهَذَا مَا اعْتَدْتُمُوهُ لِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَبِمُنَاسَبَةِ مَا نَشَرَهُ الْقُرْآنُ مِنْ فَضَائِحِهِمْ نَكَّسُوا رُؤُوسَهُمْ «وَقَالُوا» لِمُحَمَّدٍ بِصِفَةِ الِاسْتِهْزَاءِ «قُلُوبُنَا غُلْفٌ» أَيْ عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ لِأَنَّهَا مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ، وَأَلْبَسَهُمْ حُلَّةً مِنْ مَقْتِهِ فَقَالَ: «بَلْ» لَيْسَتْ قُلُوبُهُمْ غُلْفًا، إِنَّمَا «لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ» أَيْ أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ «فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ» أَيْ إِيمَانُهُمْ قَلِيلٌ، وَالْمِيمُ جَاءَتْ مُؤَكِّدَةً لِلْقِلَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الِاسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ...» إِلَىٰ قَوْلِهِ: «فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ» خَمْسَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ بَعَثَ رُسُلًا بَيْنَ مُوسَى وَعِيسَى، وَفِي الْغَالِبِ

أَنَّ شَرْعَ مُوسَى كَانَ شَرْعًا لَهُمْ، مِنْ قَوْلِهِ: «وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ».

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ مَا أُوتِيَ عِيسَى مِنَ الْبَيِّنَاتِ كَانَتْ أَبْيَنَ وَأَوْضَحَ مِنْ غَالِبِ الآيَاتِ الصَّادِرَةِ عَلَى يَدِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ. مِنْ قَوْلِهِ: «وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ».

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الرُّسُلَ كَانَتْ فِي الْغَالِبِ تَأْتِي بِمَا لَا تَهْوَاهُ النُّفُوسُ الْخَسِيسَةُ. مِنْ قَوْلِهِ: «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ».

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ عَدَمَ إِيمَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنْبِيَائِهِمْ كَانَ نَاشِئًا عَنْ كِبْرٍ. مِنْ قَوْلِهِ: «إِسْتَكْبَرْتُمْ».

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ تَعَلُّقَ الْيَهُودِ بِأَنْبِيَائِهِمْ كَانَ قَلِيلًا، بِالنِّسْبَةِ لِجَرَاءَتِهِمْ عَلَيْهِمْ. مِنْ قَوْلِهِ: «فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ».

الإِشَارَةُ

فِي تَخْصِيصِ مُوسَى بِالْكِتَابِ، وَعِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ، مَعَ أَنَّ لِعِيسَى كِتَابًا، كَمَا أَنَّ لِمُوسَى بَيِّنَاتٍ تُفِيدُ أَنَّهُ تَعَالَى مَكَّنَ لِمُوسَى فِي شَهَادَةِ الظَّوَاهِرِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ فِيهِ لِعِيسَى، وَمَكَّنَ لِعِيسَى فِي غَيْبِ

السَّرَائِرِ مَالَمْ يَكُنْ فِيهِ لِمُوسَى ، وَتُفِيدُ أَيْضًا أَنَّ الرُّسُلَ الَّتِي بَيْنَهُمَا جَاءَتْ إِلَى الظَّوَاهِرِ أَمْيَلُ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي حَقِّ مُوسَى : (وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) ، فَهِيَ تَابِعَةٌ لِآثَارِ مُوسَى لَا غَيْرَ . ثُمَّ أَقُولُ : إِنَّ النُّبُوءَةَ مَعَ الْبَوَاطِنِ أَجْمَلُ ، وَهِيَ مَعَ الظَّوَاهِرِ أَكْمَلُ ، وَكِلَاهُمَا بِانْفِرَادِهِ لَا يَعْمَلُ ، وَلِهَذَا لَمَّا انْتُزِعَتِ النُّبُوءَةُ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ بَقِيَ مَا يَقْتَضِي الْإِلْحَادَ ، وَلَمَّا انْتُزِعَتْ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ بَقِيَ الْجُمُودُ وَالْعِنَادُ ، لِأَنَّ الظَّوَاهِرَ بِانْفِرَادِهَا تَتَضَمَّنُ الْقَسْوَةَ التَّامَّةَ وَالْجُمُودَ الْمَحْضَ ، وَهُمَا نَتَائِجُ الْغَشَاوَةِ الَّتِي تَقَعُ عَلَى الْقَلْبِ ، الْمُشَارِ لَهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ) .

لِسَانُ الرُّوحِ

مُتَرْجِمًا عَنِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي آتَاهَا اللهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ هِيَ مِنَ الْبَيَانِ ، أَيِ الْإِظْهَارِ ، وَلَا تَكُونُ الْبَيِّنَةُ بَيِّنَةً إِلَّا إِذَا كَانَتْ ظَاهِرَةً فِي نَفْسِهَا مُظْهِرَةً لِغَيْرِهَا ، وَلَا تُضْرَبُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ إِلَّا لِلصِّفَةِ الْأَزَلِيَّةِ . وَكَوْنُهُ تَعَالَى آتَى عِيسَى إِيَّاهَا ، أَيْ ظَهَرَ فِيهِ بِهَا

بِمَعْنَىٰ صَارَ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَرِجْلًا، حَسْبَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ، فَكَانَ يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ بِصِفَةِ اللَّهِ لَا بِصِفَتِهِ، حَتَّى كَانَ يَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ. وَهَلْ تَرَىٰ أَنَّ فِعْلَهُ هَذَا كَانَ بِالْقُدْرَةِ الْحَادِثَةِ فَكَلَّا، لِعِيسَىٰ وَلَا قُدْرَتِهِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وَالْقُدُسُ هُوَ اللَّهُ. أَيْ ظَهَرْنَا فِيهِ بِرُوحِنَا، وَطَوَيْنَاهُ فِي وُجُودِنَا. وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ قَالَ: أَنَا رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتِهِ، أَيْ ذَاتُهُ وَصِفَتُهُ. وَلَا يَتَّهِمُ الْحَصْرَ إِلَّا جَاهِلٌ بِصِفَةِ الْإِطْلَاقِ، وَمَا عَلَيْهِ إِذَا لَمْ تَفْهَمِ الْبَقَرُ.

التَّفْسِيرُ

وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ مِنْ وَصْفِ الْيَهُودِ أَنَّهُمْ قَلِيلٌ مَا يُؤْمِنُونَ بِمَا لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ أَتَىٰ بِحُجَّةِ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ بِوَاسِطَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿كِتَابٌ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ أَيْ مُعَضِّدٌ لِلتَّوْرَاةِ، وَمُصَدِّقٌ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ ﴿وَكَانُوا﴾ الْيَهُودُ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ بِعْثَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَنُزُولِ الْقُرْآنِ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾

أَيْ يَسْأَلُونَ مِنَ اللَّهِ الْفَتْحَ وَالنَّصْرَ «عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» بِدِينِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ بِالنَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ آخِرَ الزَّمَانِ، الَّذِي نَجِدُ نَعْتَهُ فِي التَّوْرَاةِ «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا» فِي التَّوْرَاةِ، أَيْ جَاءَهُمُ الْمَوْصُوفُ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ «كَفَرُوا بِهِ» أَيْ جَحَدُوهُ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَقَالُوا لَيْسَ هُوَ الْمُبَشَّرَ بِهِ، لِمَجِيئِهِ عَلَى خِلَافِ مَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ. قَالَ تَعَالَى: «فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» بِرَسُولِهِ، الَّذِينَ يَجْحَدُونَ الْحَقَّ بَعْدَ ظُهُورِهِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمُ اشْتَرَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ «بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ» أَيْ بِئْسَ شَيْئًا الْمُشْتَرَى بِهِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ هُوَ: «أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْكِتَابِ، وَالْحَالَةُ أَنَّ كُفْرَهُمْ هَذَا «بَغْيًا» أَيْ جَوْرًا. فَهُوَ مُجَرَّدُ حَسَدٍ وَاسْتِنْكَافٍ مِنْهُمْ «أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ يَتَعَدَّى الْفَضْلَ وَالنُّبُوَّةَ إِلَى الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ. وَالْإِسْرَائِيلِيَّةُ

لا ترضى أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده «فباؤوا» أي انصرفوا عن الإيمان، ورجعوا «بغضب من الله» حل بهم بسبب كفرهم بمحمد زادهم «على غضب» كان متعلقا بهم بما نكروه من نبوة عيسى وغيره من الرسل «وللكافرين» برسل الله «عذاب» يوم القيامة «مهين» أي يهانون بسببه، ويخلدون في النار من أجله.

الإستنباط

يستخرج من قوله: (ولما جاءهم) إلى قوله: (مهين) أربعة أحكام:

الأول: علمنا بأن اليهود كانوا على خبرة من بعثة الرسول آخر الزمان. من قوله: (وكانوا يستفتحون من قبل على الذين كفروا).

الثاني: علمنا بأن أوصاف محمد كانت على طبق ما كان معلوما عندهم في التوراة. من قوله: (فلما جاءهم ما عرفوا

كَفَرُوا بِهِ) فِي التَّوْرَاةِ، أَيْ جَاءَهُمُ الْمَوْصُوفُ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ (كَفَرُوا بِهِ).

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ كُفْرَ الْيَهُودِ بِمُحَمَّدٍ كَانَ حَسَدًا مِنْهُمْ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى غَيْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. مِنْ قَوْلِهِ: (أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ...) إِلَخ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّحْجِيرَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُنَزِّلَ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ حَظَّةٌ وَخِيمَةُ الْعَوَاقِبِ. مِنْ قَوْلِهِ: (فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ) وَمَا ذَلِكَ إِلَّا بِسَبَبِ مَا سَبَقَ مِنْ بَغْيِهِمْ وَجَرَاءَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ.

الإِشَارَةُ

لَا تَزَالُ هَذِهِ النَّزْعَةُ كَامِنَةً فِي أَفْرَادٍ يَعْرِفُونَ مِنْ أَوْصَافِ الْقَائِمِ حَسْبَمَا يَجِدُونَهُ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ، وَيَحْفَظُونَهُ مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، إِمَّا بِمَنَامٍ أَوْ بِإِلْهَامٍ، أَوْ بِمَا هُوَ أَوْضَحُ مِنْ ذَلِكَ، مِمَّا تَشْمَلُهُ الْأَذْوَاقُ، وَيُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَيَجْحَدُونَ مَا هُنَالِكَ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَبَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ

مِنْ عِبَادِهِ . قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا هِيَ إِلَّا نَزْعَةٌ شَيْطَانِيَّةٌ إِسْرَائِيلِيَّةٌ، صَدَّقُوا بِإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَلَمْ يَرَوْهُمَا، وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ وَهُوَ مَعَهُمْ

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) يَقُولُ أَنَّ (مَا) هُنَا نَافِيَةٌ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ، إِذْ لَوْ عَرَفُوا مَا فِيهِ مَا كَفَرُوا بِهِ .

التَّفْسِيرُ

ثُمَّ أَتَى تَعَالَى بِجُمْلَةٍ فِيهَا مِنْ حُسْنِ أُسْلُوبِ الدَّعْوَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَشِدَّةِ تَعَصِّي وَصَلَابَةِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ . فَأَمَّا حُسْنُ الدَّعْوَةِ فَيُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» أَيْ لِلْيَهُودِ، وَالْقَائِلُونَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَالْمَقُولُ هُوَ «آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» ، وَوَجْهُ الْمُلَاطَفَةِ فِي الدَّعْوَةِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِمْ : آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَكَانَ الْمُتَبَادَرُ مِنَ الْفَهْمِ أَنْ يَقُولَ : آمِنَّا، فَيَدْخُلُ الإِيمَانُ بِالْقُرْآنِ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَلِلَّهِ دَرُّ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَشْفَقَهُمْ عَلَى الْعِبَادِ، فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَأْخُذُوا الْيَهُودَ بِطَرَفٍ خَفِيٍّ إِلَى الإِيمَانِ، لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ أَدْعَى فِي

قَبُولِ الإِيمَانِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: آمِنُوا بِالْقُرْآنِ. وَشِدَّةُ دَهَاءِ الْمُخَاطَبِ مِنْهُ تفطن لِمُرَادِ الْمُخَاطِبِينَ «قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا»، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي التَّعَطُّفِ، لِأَنَّهُمْ لَوْ قَالُوا لَا نُؤْمِنُ، لَزِمَ كُفْرُهُمْ بِالتَّوْرَاةِ، وَلَوْ قَالُوا آمَنَّا، لَزِمَ إِيمَانُهُمْ بِالْقُرْآنِ، فَأَتَوْا بِكَلِمَةٍ جَامِعَةٍ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالتَّوْرَاةِ «وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ» وَالْمَكْفُورُ بِهِ «وَهُوَ الْحَقُّ» أَيِ الْقُرْآنُ حَقٌّ، وَمِنَ الْحَقِّ نَزَلَ حَالَةَ كَوْنِهِ «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ» مِنَ التَّوْرَاةِ، مُقَرِّرًا لِلْكَثِيرِ مِنْ أَحْكَامِهِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا الشِّقُّ مِنَ الإِيمَانِ لَمْ يَنْجَحْ بِانْفِرَادِ فَأَرَادَ تَعَالَى أَنْ يَنْفِيَهُ عَلَيْهِمُ الْبَتَّةَ، وَإِنَّهُ لَوْ صَحَّ لَهُمُ الإِيمَانُ بِالتَّوْرَاةِ لَصَحَّ بِالْقُرْآنِ، قَالَ لِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «قُلْ» لَهُمْ «فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بِالتَّوْرَاةِ كَمَا تَزْعُمُونَ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ أَنْتُمْ وَأَسْلَافُكُمْ قَتْلَ الأَنْبِيَاءِ مُحَلَّلًا فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ؟ وَلَمَّا كَانَ قَدْ يُقَالُ لَمْ تَصِحَّ نُبُوءَتُهُمْ عِنْدَ مَنْ قَتَلُوهُمْ أَتَى تَعَالَى بِمَا لَا مَنْدُوحَةَ عَنْهُ، فَقَالَ: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ

مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ» الواضحةِ الدَّالَّةِ على صِدْقِهِ، وَقَدِ اعْتَرَفْتُمْ بِرِسَالَتِهِ «ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ» إلهًا «مِنْ بَعْدِهِ» أَيْ مِنْ ذَهَابِهِ إِلَى الْمُكَالَمَةِ «وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ» فِي اتِّخَاذِكُمْ لَهُ، لَا حُجَّةَ لَدَيْكُمْ تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا، فَمَاذَا تَقُولُونَ، فَهَلْ هَذَا مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الْإِيمَانِ بِالتَّوْرَاةِ؟ فَبِئْسَ الْإِيمَانُ إِيمَانُكُمْ. ثُمَّ أَتَى تَعَالَى ثَانِيًا بِمَا فِيهِ تَكْذِيبٌ لِدَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ بِالتَّوْرَاةِ، فَقَالَ: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ» أَيِ اذْكُرُوا إِذْ أَخَذْنَا عَلَيْكُمُ الْعَهْدَ عَنِ الْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ بَعْدَمَا هَدَّدْنَاكُمْ «وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ» عِنْدَمَا أَعْرَضْتُمْ عَنْ قَبُولِهِ، وَبَعْدَمَا أَقْرَرْتُمْ قُلْنَا لَكُمْ: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ» فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ «بِقُوَّةٍ» وَحَزْمٍ «وَاسْمَعُوا» أَمْرَ اللَّهِ، مُطِيعِينَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ «قَالُوا سَمِعْنَا» الْقَوْلَ «وَعَصَيْنَا» الْأَمْرَ بِمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْقَسَاوَةِ وَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الشَّقَاوَةِ «وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ» أَيِ امْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ بِحُبِّ الْعِجْلِ كَمَا تَمْتَلِئُ مِعْدَةُ الظَّمْآنِ مِنَ الْمَاءِ، فَلِهَذَا لَا يَتَمَكَّنُ مِنْهَا الْإِيمَانُ، وَكَانَ ذَلِكَ «بِكُفْرِهِمْ» بِالتَّوْرَاةِ، إِذْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ لَمَا عَبَدُوا الْعِجْلَ وَلَا تَمَكَّنَتْ

مَحَبَّتُهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ «قُلْ» لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كَانَ مَا فَعَلْتُمُوهُ مِنْ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ وَعِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ هُوَ مِمَّا يَأْمُرُ بِهِ الْإِيمَانُ «بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ» أَيْ بِئْسَ شَيْئًا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ، وَبِئْسَ الْإِيمَانُ إِيمَانُكُمْ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ أَنْ يَنْفِيَ عَنْهُمُ الْإِيمَانَ بِالْمَرَّةِ، وَإِنْ مِنْ قَبْلِ بِعْثَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَمْ نَدْرِ هَلْ أَرَادَ بِذَلِكَ الْإِيمَانَ الْكَامِلَ أَوِ الْإِيمَانَ مِنْ أَصْلِهِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ.

الْإِسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ) إِلَى قَوْلِهِ: (بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) خَمْسَةُ أَحْكَامٍ:

الْأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ التَّصْدِيقَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِجْمَالًا كَافٍ فِي الْإِيمَانِ بِالْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ. مِنْ قَوْلِهِ: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) إِذْ لَوْ قَالُوا آمَنَّا لَصَحَّ مِنْهُمْ.

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْأَوْلَى عَدَمُ حَصْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ

لِئَلَّا يَخْرُجَ مَا هُوَ دَاخِلٌ، وَلَا نَدْفَعَ مَا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ مَعْلُومَاتِنَا مِمَّا بَلَغَنَا مِنْ ذَلِكَ الْقَبِيلِ، لِئَلَّا يَكُونَ هُوَ الْحَقَّ، إِنَّمَا نُوكِلُ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾.

الثَّالِثُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْإِيمَانَ الْمُسْتَفَادَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ الْحِسِّيَّاتِ كَخَرْقِ الْعَوَائِدِ لَا يُؤْمَنُ عَلَى صَاحِبِهِ الِارْتِدَادُ، حَسْبَمَا وَقَعَ لِقَوْمِ مُوسَى بَعْدَ مَا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ اتَّخَذُوا عِجْلًا بَعْدَهُ، بِخِلَافِ مَا لَوْ كَانَ مُسْتَفَادًا عَنْ بَيِّنَةٍ عَقْلِيَّةٍ.

الرَّابِعُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَلَقَّوْا أَحْكَامَهُمْ مِنْ مُوسَى عَنْ كُرْهٍ، وَالْمُكْرَهُ عَلَى الشَّيْءِ لَا يَدُومُ عَلَيْهِ. مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

الْخَامِسُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ حُبَّ الشَّيْءِ يَمْنَعُ مِنْ مُلَاحَظَةِ عُيُوبِهِ، وَإِنْ كَانَ كُلُّهُ عُيُوبًا، كَحُبِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ. مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ

الْإِشَارَةُ

تُحَذِّرُنَا أَنْ يَتَجَمَّدَ الْإِنْسَانُ عَلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ فَهْمُهُ مِنْ ظَوَاهِرِ

الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيُنكِرُ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، مِمَّا هُوَ مِنْ شَأْنِهِ الخَفَاءُ عَنِ العُمُومِ، فَقَدْ يُنكِرُ الحَقَّ الثَّابِتَ المُشَارِكَ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا) وَمُوَافِقًا لِمَا مَعَهُمْ مِنَ الظَّوَاهِرِ، وَيَكُونُ الأَخْذُ بِالظَّوَاهِرِ غَيْرَ كَافٍ فِي الإِيمَانِ، مَعَ نُكْرَانِ البَوَاطِنِ، وَأَمَّا مَعَ العَجْزِ عَنْهَا فَقَدْ يَصِحُّ مَعَ النَّقْصِ، وَفِي مَجِيءِ الحَقِّ مِنْ وَرَاءِ الظَّوَاهِرِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنْ لَا وُصُولَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهَا «وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ أَخَذَ بِالظَّوَاهِرِ، عَامِلًا بِمَا فِيهَا، فَهُوَ بِهَذِهِ المُنَاسَبَةِ غَيْرُ مُحْتَاجٍ لِمَا بَطَنَ فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: لَمْ تَأْخُذْ بِهَا وَلَا عَمِلْتَ بِمَا فِيهَا، وَلَوْ عَمِلْتَ بِمَا عَلِمْتَهُ لَأَوْرَثَكَ اللَّهُ عِلْمًا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُهُ. وَيُقَالُ لَهُمْ أَيْضًا: لَوْ كُنْتُمْ آخِذِينَ بِالظَّوَاهِرِ مُؤْمِنِينَ بِمَا فِيهَا لَسِرْتُمْ عَلَى سُنَنِ الأَنْبِيَاءِ فَتَسْتَبْدِلُونَ الرَّغْبَةَ بِالزُّهْدِ، وَالهَزْلَ بِالجِدِّ، وَالبَطَالَةَ بِالكَدِّ، وَالضِّدَّ بِالضِّدِّ، إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ مِنْ أَوْصَافِكُمُ الخَسِيسَةِ مَعَ أَوْصَافِكُمُ النَّفِيسَةِ، وَلَكِنَّكُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ بِهَذَا الاعْتِبَارِ، وَأَحْيَيْتُمْ سُنَنَ الشَّيَاطِينِ، فَلَا جَرَمَ يَتَنَاوَلُكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» وَكُلُّ

ذَلِكَ مِمَّا أُشْرِبَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا، الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ قَوْلِهِ: «وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» لِلنُّفُوسِ السُّفْلِيَّةِ مِنْ حَضْرَةِ الْمَلَإِ الْأَعْلَى «آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» بِالْمَعْنَى تَنْزِلْ سَوَاءً إِلَيْكُمْ أَوْ لِغَيْرِكُمْ مِنَ الْعُقُولِ الْعُلْوِيَّةِ وَالْأَرْوَاحِ النُّورَانِيَّةِ وَالْقُلُوبِ الصَّافِيَةِ «قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا» وَتَحَقَّقْنَاهُ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَبَلَغَنَاهُ بِعُقُولِنَا «وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ» أَيِ الْمَكْفُورُ بِهِ الَّذِي هُوَ مِنْ وَرَاءِ مَا عَرَفُوهُ، وَإِذَا كَانَ مَا كَفَرُوا بِهِ حَقًّا، وَمَا عَرَفُوهُ حَقًّا عَادَ لِكُلِّ حَقًّا عِنْدَ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، لِأَنَّ الْبَاطِنَ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ الظَّوَاهِرِ.

التَّفْسِيرُ

وَلَمَّا كَانَتْ دَعْوَةُ أَحْبَارِ الْيَهُودِ أَوْسَعَ وَأَعْرَضَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَمِنْ

ذَلِكَ يَرَوْنَ كَأَنَّ الْجَنَّةَ خُلِقَتْ بِالْخُصُوصِ مِنْ أَجْلِهِمْ، أَتَى تَعَالَى بِمَا فِيهِ تَبْكِيتٌ لَهُمْ، وَتَضْعِيفٌ لِدَعْوَاهُمْ، فَقَالَ: «قُلْ» لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ «إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْأُخْرَى» أَيِ الْجَنَّةُ وَنَعِيمُهَا «عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً» أَيْ سَالِمَةً لَكُمْ «مِنْ دُونِ النَّاسِ» عَلَى أَيِّ عَقِيدَةٍ كَانُوا «فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ» وَاسْتَبْشِرُوا بِوُرُودِهِ عَلَيْكُمْ «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فِي دَعْوَاكُمْ أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ خَالِصَةٌ لَكُمْ، فَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِ مِنْ أَنَّ الْجَنَّةَ هُيِّئَتْ مِنْ أَجْلِهِ فَلَا يَسْتَنْكِفُ مِنْ وُرُودِ الْمَوْتِ، بِأَنْ يَتَمَنَّاهُ، لِأَنَّهُ مُلَاقِيهِ، ثُمَّ أَتَى تَعَالَى بِمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَقَالَ: «وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» أَيْ بِسَبَبِ مَا قَدَّمُوهُ إِلَى آخِرَتِهِمْ مِنَ الذُّنُوبِ، فَكَانُوا عَلَى عِلْمٍ مِنْ مَصِيرِهِمْ، فَلِهَذَا لَا يَرْكَنُونَ لِلْمَوْتِ «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» وَأَيُّ ظُلْمٍ أَعْظَمُ مِنْ جُحُودِهِمُ الْحَقَّ بَعْدَ مَا عَرَفُوهُ «وَلَتَجِدَنَّهُمْ» أَيِ الْيَهُودَ «أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ» أَيْ أَشَدَّ النَّاسِ طَلَبًا لَهَا فَضْلًا عَلَى أَنْ يَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ، فَلَا تَجِدَنَّ يَهُودِيًّا إِلَّا وَإِيمَانُهُ

مَتَاعُ الدُّنْيَا، فَهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ مُطْلَقًا عَلَى الْحَيَاةِ «وَ» أَحْرَصُ حَتَّى «مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» أَيْضًا «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ» أَيْ يَتَمَنَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ «لَوْ يُعَمَّرُ» أَيْ يَعِيشُ فِي عُمْرِهِ «أَلْفَ سَنَةٍ» فِي الدُّنْيَا، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِعِلْمِهِ بِسُوءِ الْمُنْقَلَبِ «وَمَا هُوَ» تَعْمِيرُهُ «بِمُزَحْزِحِهِ» أَيْ لَيْسَ هُوَ بِصَالِحٍ أَنْ يُزَحْزِحَهُ وَلَوْ أَدْنَى شَيْءٍ «مِنَ الْعَذَابِ» «أَنْ يُعَمَّرَ» مَا شَاءَ، فَمَصِيرُهُ إِلَى النَّارِ «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» فِي تَعْمِيرِهِمْ، فَيُجْزِيهِمْ بِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ.

الإِسْتِنْبَاطُ

يُسْتَخْرَجُ مِنْ قَوْلِهِ: «قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ» إِلَى قَوْلِهِ: «بِمَا يَعْمَلُونَ» أَرْبَعَةُ أَحْكَامٍ:

الأَوَّلُ: عَلِمْنَا بِأَنَّ أَبْلَغَ شَيْءٍ يَسْتَدِلُّ بِهِ الإِنْسَانُ عَلَى صَلَاحِيَّةِ نَفْسِهِ لِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ النِّعَمِ تَشَوُّقُهُ لِلْمَوْتِ وَالْمِثْنَانُهُ بِمَجِيئِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: «فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

الثَّانِي: عَلِمْنَا بِأَنَّ الْمُوجِبَ لِعَدَمِ رِضَانَا بِالْمَوْتِ هُوَ مَا ارْتَكَبْنَاهُ مِنَ

الذُّنُوبِ . مِنْ قَوْلِهِ :« وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» .

الثَّالِثُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ هُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَحَتَّى مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنْ قَوْلِهِ :« وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ».

الرَّابِعُ : عَلِمْنَا بِأَنَّ شَيْخُوخَةَ الْإِنْسَانِ وَشِدَّةَ تَعْمِيرِهِ فِي الدُّنْيَا لَمْ تُفِيدْهُ شَيْئًا فِي التَّزَحْزُحِ عَنِ الْعَذَابِ مَعَ سُوءِ الْأَعْمَالِ، مِنْ قَوْلِهِ: «أَيَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ».

الإِشَارَةُ

إِنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :« قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » مَا يَتَنَاوَلُ سَائِرَ الْمُنْتَسِبِينَ ، فَلْيُحَقِّقِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ عَلَى هَذَا الْمِعْيَارِ الصَّادِقِ مَهْمَا سَوَّلَتْ لَهُ أَنَّهُ عَلَى قَدَمٍ رَاسِخٍ ، فَإِنْ كَانَ الْمَوْتُ بُغْيَتَهُ وَتُحْفَتَهُ حَسْبَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :(الْمَوْتُ تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ) فَهُوَ الْمُؤْمِنُ حَقًّا ، وَلِهَذَا تَجِدُ حِزْبَ اللَّهِ أَرْغَبَ فِي التَّسَارُعِ إِلَى الْمَوْتِ مِنْهَا إِلَى الْحَيَاةِ ، لِعِلْمِهِمْ يَقِينًا بِمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُحْسِنِينَ ، وَهَذَا هُوَ

دَلِيلُ الصِّدْقِ فِي دَعْوَاهُ، وَأَمَّا أَهْلُ الدَّعَاوِي الْكَاذِبَةِ، الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُقَيَّدُوا بِالْحَصْرِ، فَيَشْمَلُهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْمُخَالِفَةِ لِأَقْوَالِهِمْ «كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ».

لِسَانُ الرُّوحِ

فِي قَوْلِهِ: «وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا» يَقُولُ لَا يَتَمَنَّى الْمَوْتَ إِلَّا مَنْ ذَاقَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَلِهَذَا اخْتَارَ الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ السَّلَامُ جَانِبَ اللِّقَاءِ عَلَى الْبَقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا.. إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ.

التَّفْسِيرُ

وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْيَهُودِ مَنْ حَاجَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عِدَّةِ مَسَائِلَ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا أَنْ سَأَلُوهُ عَمَّنْ يَأْتِيهِ بِالْوَحْيِ، فَقَالَ: جِبْرِيلُ، فَقَالُوا: إِنَّهُ عَدُوٌّ لَنَا لِأَسْبَابٍ، مِنْ جُمْلَتِهَا أَنَّهُ وَعَدَنَا

أَنْ لَا يَجْعَلَ النُّبُوءَةَ فِي غَيْرِنَا ، وَحَاشَا اللَّهِ أَنْ يَصْدُرَ مِنْ أَمِينِ الْوَحْيِ مِثْلُ ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ تَعَالَى : «قُلْ» لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ» الْمُسَخَّرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ فَعَدَاوَتُهُ لِلَّهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا لِجِبْرِيلَ ، لِأَنَّ جِبْرِيلَ لَا يَمْلِكُ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ شَيْئًا «فَإِنَّهُ» أَيِ الْقُرْآنَ الَّذِي اسْتَفَزَّهُمْ وَعِيدُهُ ، وَآلَمَهُمْ تَهْدِيدُهُ «نَزَّلَهُ» أَيْ جِبْرِيلُ «عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» لَا بِاخْتِيَارِهِ ، حَتَّى تَتَوَجَّهَ عَلَيْهِ الْمَلَامَةُ أَوْ تَصِحَّ عَدَاوَتُهُ حَالَةَ كَوْنِ الْقُرْآنِ «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» مِنَ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ «وَهُدًى» لِمَنْ سَبَقَتْ لَهُ الْعِنَايَةُ ، فَإِنَّهُ يُهْتَدَى بِهِ لِطَرَائِقِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ «وَبُشْرَى» بِرِضْوَانِ اللَّهِ الْأَكْبَرِ «لِلْمُؤْمِنِينَ» بِهِ ، الْعَامِلِينَ بِمَا فِيهِ . وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالنُّزُولِ ، وَفِي كَوْنِهِ عَلَى الْقَلْبِ ، فَالْكَلَامُ يَأْتِي عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، ثُمَّ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ عَدَاوَتُهُ تَعَالَى لَا تَتَأَتَّى إِلَّا بِعَدَاوَةِ أَحِبَّائِهِ ، وَالْخُرُوجِ عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَقَدْ حَصَلَتْ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ ، فَتَحَقَّقَتْ عَدَاوَتُهُمْ لِلَّهِ حِينَئِذٍ ، وَبِتِلْكَ الْمُنَاسَبَةِ

صدر بنفسه فقال: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ» مِنَ الْبَشَرِ «وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ» مِنْ رُسُلِ الْمَلَائِكَةِ «فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ» وَالْمَعْنَى أَنَّ عَدَاوَةَ أَحَدٍ مِمَّا ذُكِرَ تَسْتَلْزِمُ عَدَاوَةَ الْآخَرِ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ مَنْ كَانَ عَدُوَّ اللَّهِ بِالْخُصُوصِ مُحِبًّا لِلْمَلَائِكَةِ كَالصَّابِئِينَ عَلَى مَا قِيلَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، أَوْ كَانَ عَدُوًّا لِلْمَلَائِكَةِ عُمُومًا، بِأَنْ ذَكَرَهُمْ بِمَا هُمْ بَرِئُوا مِنْهُ، أَوْ كَانَ عَدُوًّا لِرُسُلِهِ مِنَ الْبَشَرِ عُمُومًا، أَوْ كَانَ عَدُوًّا لِلْبَعْضِ مِنْهُمْ، أَوْ لِلْبَعْضِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ مِثْلَ عَدَاوَةِ الْيَهُودِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَاللَّهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ، مِنْ أَيِّ طَائِفَةٍ كَانُوا، مِمَّا ذُكِرَ وَمِمَّا لَمْ يُذْكَرُوا. ثُمَّ أَتَى تَعَالَى بِمَا فِيهِ تَثْبِيتًا لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَنْ لَا يَهْتَمَّ مِنْ إِعْرَاضِ الْيَهُودِ، فَقَالَ: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» يَا مُحَمَّدُ «آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» أَيْ وَاضِحَاتِ الدَّلَالَةِ «وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ» فَكُفْرَانُ الْفَاسِقِينَ بِهَا لَا يُنَافِي وُضُوحَهَا، بِدَلِيلِ أَنَّ مَنِ اهْتَدَى مِنْ أَجْلِهَا أَكْثَرُ مِمَّنْ كَفَرَ بِهَا وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ.

الإستنباط

يستخرج من قوله: « قل من كان عدوًا لجبريل » إلى قوله: « الفاسقون » ثلاثة أحكام:

الأول: علمنا بأن النبي كان يتلقى القرآن من جبريل تلقيًا قلبيًا، فيكون إدراكه له في الغالب بالحواس الباطنية. من قوله: « فإنه نزله على قلبك ».

الثاني: علمنا بأن عداوة الملائكة أو الرسل تستلزم عداوة الله، والمعنى أن عداوة أحدهما تستلزم عداوة الآخر. من قوله: « قل من كان عدوًا لجبريل » إلى آخره.

الثالث: علمنا بأن جميع من كفر بما جاء به محمد من أهل الكتاب إلا وهو فاسق الجارحة والاعتقاد قبل مجيء القرآن. من قوله: « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ».

الإشارة

تفيدنا أن محبة الله لا تكتسب إلا بمحبة أحبابه، وعداوته

لَا تَتَأَتَّى إِلَّا بِعَدَاوَتِهِمْ. جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ أَذِنْتُهُ بِالْحَرْبِ»، فَلْيَحْتَرِزِ اللَّبِيبُ مِنْ أَنْ يَسْعَى فِيمَا يُؤْذِي الْمُنْتَسِبِينَ لِلَّهِ كَمَا يَجْتَهِدُ أَنْ يَأْخُذَ الْحَقَّ حَيْثُمَا وَجَدَهُ، وَلَا يَقُولُ كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ كَانَ الْوَحْيُ جَاءَكَ بِهِ مِيكَائِيلُ لَاتَّبَعْنَاكَ، وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ عَدُوٌّ لَنَا. وَكَانَ الْحَقُّ مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْحَقَّ مَهْمَا عَرَفُوهُ، وَلَكِنَّ الْأَغْرَاضَ قَدْ تَحُولُ عَنِ الْمُرَادِ.

التَّفْسِيرُ

وَلَمَّا كَانَ كُفْرَانُ الْيَهُودِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَبِيلِ نَقْضِ الْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ، حَسْبَمَا كَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، وَنَقْضُ الْعَهْدِ مِمَّا تَشْمَئِزُّ مِنْهُ النُّفُوسُ الْكَرِيمَةُ، وَلَا تَأْلَفُهُ الْقُلُوبُ السَّلِيمَةُ، ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ جِبِلَّتِهِمْ فَقَالَ: «**أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا**» مَعَ اللَّهِ، ثُمَّ أَنَّ الْهَمْزَةَ لِلْإِنْكَارِ، وَالْوَاوَ لِلْعَطْفِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ «**نَبَذَهُ**» أَيْ طَرَحَهُ وَنَقَضَهُ «**فَرِيقٌ مِنْهُمْ**»، وَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ مَا مِنْ عَهْدٍ عَاهَدَهُ الْيَهُودُ قَدِيمًا أَوْ حَدِيثًا إِلَّا وَقَامَ فَرِيقٌ

بِنَقِيضِهِ، وَلَمَّا كَانَ ذِكْرُ الْفَرِيقِ فِيهِ مَا يُثْبِتُ عَدَمَ النَّقْضِ لِلْكَثِيرِ مِنْهُمْ، جَاءَ بِمَا يُزِيلُ الْإِبْهَامَ، فَقَالَ: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» فَصَدَقَ عَدَمُ النَّقْضِ حِينَئِذٍ عَلَى الْقَلِيلِ مِنْهُمْ، فَيَدْخُلُ فِيهِ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ «ص» وَمِنْ ذَلِكَ «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ» وَهُوَ مُحَمَّدٌ «ص» مُرْسَلًا «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» إِلَيْهِمْ لِيَهْدِيَهُمْ إِلَيْهِ «مُصَدِّقٌ» وَمُوَافِقٌ «لِمَا مَعَهُمْ» مِنَ الْعِلْمِ فِي التَّوْرَاةِ بِأَوْصَافِ النَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ آخِرَ الزَّمَانِ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ «نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ» أَيِ التَّوْرَاةَ، وَرَمَوْهُ «وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ» كِنَايَةً عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ، لَمَّا وَجَدُوهُ مُطَابِقًا لِأَوْصَافِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَدْبَرُوا عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ «كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» مِنَ التَّوْرَاةِ شَيْئًا «وَاتَّبَعُوا» أَحْبَارُ الْيَهُودِ «مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ» مِنَ السِّحْرِ «عَلَى» عَهْدِ «مُلْكِ سُلَيْمَانَ» بْنِ دَاوُودَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا وَجَدُوا التَّوْرَاةَ مُطَابِقًا عَلَى نُعُوتِ مُحَمَّدٍ «ص» أَعْرَضُوا عَمَّا فِيهَا، وَالْتَفَتُوا لِبَقَايَا مَا كَانَتْ تَتْلُوهُ الشَّيَاطِينُ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ مِنَ السِّحْرِ

لِأَنَّهُ كَانَ مُجْتَمِعًا لَدَيْهِمْ . وَبَيَانُ الْقِصَّةِ عَلَى مَا قِيلَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ - وَهُمُ الْمُتَمَرِّدُونَ مِنَ الْجِنِّ - كَانُوا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُنَاسَبَةِ دُخُولِهِمْ تَحْتَ أَمْرِهِ ، وَحُضُورِهِمْ فِي مَجْلِسِهِ ، ثُمَّ يَأْتُونَ الْكَهَنَةَ بِمَا اطَّلَعُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقْبِلِينَ عَلَيْهِ ، وَمَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْمُغَيَّبَاتِ ، وَيَضُمُّونَ إِلَى ذَلِكَ أَكَاذِيبَ وَتَخْلِيطَاتٍ حَتَّى شَاعَ الْخَبَرُ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ وَفِيمَا بَعْدَهُ أَنَّ مُلْكَ سُلَيْمَانَ كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ ، وَحَاشَى لِلَّهِ « **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ** » بِأَنِ اسْتَعْمَلَ السِّحْرَ عَلَى مَا فِي زَعْمِهِمُ الْفَاسِدِ « **وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا** » بِسَبَبِ تَمَرُّدِهِمْ وَتَضْلِيلِهِمُ الْعِبَادَ ، وَبِمَا « **يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** » وَيَحُضُّونَهُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ ، وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ التَّعْلِيمِ لَيْسَ بِكُفْرٍ « **وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ** » أَيْ وَيُعَلِّمُونَ النَّاسَ أَيْضًا مَا أُنْزِلَ مِنَ السِّحْرِ عَلَى الْمَلَكَيْنِ « **بِبَابِلَ** » قَرْيَةٌ بِسَوَادِ الْعِرَاقِ ، وَهُمَا : « **هَارُوتَ وَمَارُوتَ** » بَعَثَهُمَا اللَّهُ لِتَعْلِيمِ السِّحْرِ مِحْنَةً وَاخْتِبَارًا ، وَلِهَذَا « **وَمَا يُعَلِّمَانِ** » أَيِ الْمَلَكَانِ « **مِنْ أَحَدٍ** » السِّحْرَ « **حَتَّى** » يَنْصَحَانِهِ

وَ «يَقُولَا» لَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّحْذِيرِ «إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ» لَكُمْ وَاخْتِبَارٌ فَإِيَّاكَ «فَلَا تَكْفُرْ» بِالْعَمَلِ بِهِ، وَأَمَّا عِلْمُهُ لَا يُنَافِي الْإِيمَانَ، ثُمَّ أَتَى تَعَالَى بِبَيَانِ مَا يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا، فَقَالَ: «فَيَتَعَلَّمُونَ» النَّاسُ «مِنْهُمَا» أَيْ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ «مَا» أَيْ شَيْئًا «يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ» فَتَحْدُثُ بَيْنَهُمَا عَدَاوَةٌ وَبُغْضٌ لِسَبَبِهِ. وَلَمَّا كَانَ الْمَقَامُ مَضَنَّةَ التَّوَهُّمِ مِنْ جِهَةِ إِسْنَادِ التَّأْثِيرِ لِلسِّحْرِ نَفَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: «وَمَا هُمْ» أَيِ السَّحَرَةُ أَيْضًا «بِضَارِّينَ بِهِ» أَيْ بِسِحْرِهِمْ «مِنْ أَحَدٍ» الْمَعْمُولُ لَهُ ذَلِكَ السِّحْرُ «إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ، فَلَا تَأْثِيرَ لِسِحْرٍ كَغَيْرِهِ، فَلَا ضَارَّ وَلَا نَافِعَ إِلَّا اللَّهُ «وَيَتَعَلَّمُونَ» أَيِ السَّحَرَةُ «مَا يَضُرُّهُمْ» فِي آخِرَتِهِمْ «وَلَا يَنْفَعُهُمْ» فِي دُنْيَاهُمْ، فَلَوْ تَجِدَنَّ سَحَّارًا إِلَّا وَفَضِيحَتُهُ أَعْظَمُ مِنْ سِحْرِهِ، وَلَمَّا أَعْطَى تَعَالَى الْحِكَايَةَ مُسْتَحَقَّهَا اسْتَلْفَتَ الْخِطَابَ لِمَنْ وَرَدَتْ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ نَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ فَقَالَ: «وَلَقَدْ عَلِمُوا» أَيِ الْيَهُودُ «لَمَنِ اشْتَرَاهُ» اللَّامُ لِلْقَسَمِ، وَالضَّمِيرُ لِلسِّحْرِ، وَالْمَعْنَى

أَنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ بِحُكْمِ مَنِ اسْتَبْدَلَ كِتَابَ اللَّهِ بِالسِّحْرِ «مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ» عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «مِنْ خَلَاقٍ» أَيْ مَالَهُ حَظٌّ وَلَا نَصِيبٌ «وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ» أَيْ بِئْسَ الشَّيْءُ الَّذِي سَلَّمُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابِ اللَّهِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّنْبِ هُوَ اسْتِبْدَالُهُمْ كِتَابَ اللَّهِ بِمَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ.

الإِشَارَةُ

تَتَنَاوَلُ الْآيَةُ كُلَّ مَنْ نَبَذَ بِكِتَابِ اللَّهِ بِأَنْ أَدْبَرَ عِنْدَ التَّدَبُّرِ فِيهِ، وَالْوُقُوفِ مَعَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَاتَّبَعَ مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ الَّذِي فِي الْغَالِبِ مِنْهَا أَكْثَرُ الْأَوْصَافِ الْوَاهِيَةِ وَالْأَسْمَاءُ الْعِبْرَانِيَّةُ، فَلْيَحْذَرْ مُتَعَاطِيهَا أَنْ يَشْمَلَهُ مَعَ الْحُكْمِ وَلَوْ جُزْؤُهُ، وَهَذَا مَا لَمْ يَتَّضِحْ صَرْفُهَا لِمَا هُوَ السِّحْرُ الْمُبِينُ، الْمُشْتَقِلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ» وَهَذِهِ مُنَاخُ السُّفَهَاءِ مِنَ الْقُرَّاءِ وَبُخَيْتُهُمُ الْقَائِلُ فِيهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فَسَاقُ أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا فَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

التفسير

قال تعالى خطاب راجع لليهود المنكرين نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم: «ولو أنهم آمنوا» بما جاء به القرآن «واتقوا» عقوبة الله المترتبة على كل من يجحد الحق بعد ظهوره «لمثوبة» تعرضوا لها «من عند الله» يوم القيامة «خير» لهم من نكران الحق «لو كانوا يعلمون» العلم النافع لقالوا الحق أحق أن يتبع. ولما كان الغش من جبلية اليهود لزم لهم من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم قديما وحديثا، ومن جملة ذلك أنهم كانوا يدسون للنبي في حديثهم ما هو في الظاهر بصفة المدح وفي الباطن بعكسه، فأراد تعالى تنبيه المؤمنين عن مثل ذلك، فقال: «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا» لنبيكم «راعنا» أي اجعل رعايتك علينا فإن اليهود تقولها معكم، وتريد بها معنى آخر في لغتهم مضمنة سبا «وقولوا انظرنا» بدل قولكم راعنا حتى لا تكون ذريعة، فإن المعنى واحد «واسمعوا» ما قلناه

لَكُمْ ، فَكَانَ الأَخْذُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ بَدَلَ الأُولَى عَلَى سَبِيلِ الوُجُوبِ « وَلِلْكَافِرِينَ » الْمُتَجَرِّئِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ « عَذَابٌ أَلِيمٌ » بِقَدْرِ جَرَاءَتِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ ، ثُمَّ أَتَى تَعَالَى بِمَا فِيهِ تَحْذِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَعْدَائِهِمْ ، فَقَالَ : « مَا يَوَدُّ » أَيْ يُحِبُّ « الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » وَهُمُ الْيَهُودُ « وَلَا الْمُشْرِكِينَ » مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ « أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ » مُطْلَقًا ، وَبِالْأَخَصِّ مَا هُوَ كَالْوَحْيِ « مِنْ رَبِّكُمْ » فَتَكُونُ لَكُمْ بِهِ السَّعَادَةُ الأَبَدِيَّةُ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا « وَاللَّهُ » سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ إِرَادَتُهُ عَنْ مُوَافَقَةِ الأَغْرَاضِ ، فَلَهُ الاِخْتِيَارُ التَّامُّ « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ » وَنُبُوءَتِهِ وَوِلَايَتِهِ « مَنْ يَشَاءُ » مِنْ عِبَادِهِ ، وَبِمَا شَاءَ ، وَكَيْفَ شَاءَ ، فَالنَّاسُ فِي جَانِبِ الْفَضْلِ سَوَاءٌ « وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » الْمُمْتَنِعُ تَقْيِيدُهُ بِشَخْصٍ دُونَ الآخَرِ .

الإِشَارَةُ

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... » إِلَخْ

مَا يَتَنَاوَلُ كُلَّ حَسُودٍ، وَيَكُونُ الكَافُ مِنْ ضَمِيرِ المُخَاطَبِينَ شَامِلٍ لِأَهْلِ الخُصُوصِيَّةِ مُطْلَقًا فِي كُلِّ عَصْرٍ وَزَمَانٍ، وَالمُسْتَفَادُ الأَهَمُّ مِنَ الآيَةِ هُوَ عِلْمُنَا بِبُعْدِ المَشِيئَةِ عَنِ الإِرْتِبَاطِ بِالعِلَلِ وَالأَسْبَابِ، مِنْ قَوْلِهِ: « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ »، وَلَمَّا كَانَ الوَهْمُ قَدْ يُسَلِّمُ ذَلِكَ غَيْرَ أَنَّهُ يَسْبِقُ إِلَى تَخْصِيصِ المُتَقَدِّمِينَ بِمَا يَتَعَذَّرُ فِي الإِمْكَانِ وُصُولُ المُتَأَخِّرِينَ إِلَيْهِ، نَفَاهُ تَعَالَى بِكَيْفِيَّةٍ كَادَتْ تُثْبِتُ شَيْئًا مِنْ عَكْسِهِ، بِقَوْلِهِ: « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ». وَلَعَلَّكَ تَقُولُ أَنَّ الآيَةَ السَّابِقَةَ تَامَّةُ الإِسْتِقْلَالِ بِنَفْسِهَا، فَأَقُولُ وَهُوَ كَذَلِكَ، غَيْرَ أَنَّ الإِشَارَةَ تُؤْخَذُ مِنْ سِرِّ تَرْتِيبِ الآيِ مَعَ بَعْضِهَا، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ، فَمَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَتَعْتَمِدُ مَا قَبْلَهَا بِطَرَفٍ إِمَّا خَفِيٌّ وَإِمَّا جَلِيٌّ.

التَّفْسِيرُ

وَمِنْ كَفَالَتِهِ تَعَالَى بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ أَنْ رَتَّبَ الشَّرَائِعَ فِي سَابِقِ

عِلْمِهِ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ طِبْقَ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمَاكِنِ، وَجَعَلَ الشَّرْعَ اللَّاحِقَ حَاكِمًا عَلَى مَا قَبْلَهُ، مُصَدِّقًا لِمَعْنَاهُ، مُنَقِّحًا لِمَبْنَاهُ، وَبِمُوجِبِ مَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ الْأَحْمَدِيَّةُ مِنْ تَحْلِيلِ بَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَتَوْجِيبِ بَعْضِ الْمُبَاحَاتِ بِالنَّظَرِ لِلتَّوْرَاةِ وَنَحْوِهِ، فَاسْتَشْكَلَتِ الْيَهُودُ أَمْرَ النَّسْخِ، وَاسْتَبْعَدَتْ مَعْنَاهُ، وَقَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْسَخُ شَرْعًا قَرَّرَهُ بِنَفْسِهِ. وَكَانَ تَمَسُّكُهُمْ بِذَلِكَ اغْتِنَامَ فُرْصَةٍ لِمُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ، وَإِلَّا فَالتَّوْرَاةُ نَفْسُهُ نَاسِخٌ لِبَعْضِ الشَّرَائِعِ قَبْلَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خَرَجَ مِنَ الْفُلْكِ إِنِّي جَعَلْتُ كُلَّ دَابَّةٍ مُؤْكَلًا لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ، مَعَ أَنَّ فِي التَّوْرَاةِ الْكَثِيرَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مُحَرَّمَةً عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، وَهَذَا غَيْرُ خَفِيٍّ عَلَى بَعْضِ الْيَهُودِ وَلَكِنَّ الْعَصَبِيَّةَ أَشَدُّ مَانِعٍ فِي قَبُولِ الْحَقِّ. وَبَعْدَمَا أَنْكَرُوا وُجُودَ النَّسْخِ مِنْ أَصْلِهِ تَوَسَّعُوا فِي النَّكِيرِ، وَالْتَفَنُّوا لِلْقُرْآنِ فِي نَفْسِهِ وَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا «ص» يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِأَمْرٍ ثُمَّ يَأْتِيهِمْ بِنَقِيضِهِ

وهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَنَّ التَّكَالِيفَ لَمْ تَأْتِ فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ جُمْلَةً، إِنَّمَا أَتَتْ عَلَى التَّدْرِيجِ، وَمِنْهَا مَا بُدِئَ مُخَفَّفًا كَتَحْرِيمِ الخَمْرِ، وَوُجُوبِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الخَلْقِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَرُبَّ مَصْلَحَةٍ فِي وَقْتٍ يَكُونُ غَيْرُهَا أَصْلَحَ مِنْهَا فِي وَقْتٍ آخَرَ، وَلَا أَصْلَحَ مِنْهَا فِي وَقْتِهَا. وَبِمُوجِبِ مَا ذُكِرَ بَيَّنَ تَعَالَى الحِكْمَةَ فِي وُجُودِ النَّسْخِ فَقَالَ: «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا»، ثُمَّ أَقُولُ أَنَّ فِي الآيَةِ مَعْتَرَكَ تَنَازُعٍ بَيْنَ المُفَسِّرِينَ، بِاعْتِبَارِ تَوْجِيهِ القِرَاءَةِ فِي نُنْسِهَا، لِأَنَّهَا جَاءَتْ عَلَى وُجُوهٍ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ يَنْحَصِرُ الخِلَافُ فِي إِنْشَائِهَا، هَلْ هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ النِّسْيَانِ، حَسْبَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ القِرَاءَةُ لِمَنْ أَسْقَطَ الهَمْزَةَ وَضَمَّ النُّونَ، أَوْ مِنَ النِّسْءِ الَّذِي هُوَ التَّأْخِيرُ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ مَنْ فَتَحَ النُّونَ وَأَثْبَتَ الهَمْزَةَ. وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ مِنَ النِّسْيَانِ يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، لِئَلَّا يَكُونَ وَصْمَةً فِي جَانِبِ التَّبْلِيغِ، لِأَنَّ النِّسْيَانَ إِذَا تَطَرَّقَ شَيْئًا مِنَ الأَحْكَامِ إِنْجَرَّ لِمَا فِيهَا، وَهَذَا لَا يَخْفَى ضَرَرُهُ، وَعَلَيْهِ فَيَحْمِلُ النِّسْيَانَ عَلَى ذُهُولِ الآيَةِ مِنَ القُلُوبِ بَعْدَ

رَفْعِهَا حُكْمًا وَتِلَاوَةً، فَتَكُونَ مَنْسِيَّةً بِالنَّظَرِ لِلْحِفْظِ الْعَامِّ، وَيَدْخُلُ هَذَا الْقِسْمُ فِي الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ وَالْأَحْكَامِ الْغَابِرَةِ الَّتِي جَاءَتْ مُوَقَّتَةً، وَلَا يُنْكِرُ فِكْرِي إِنْ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْقَبِيلِ هُوَ مِنْ بَقَايَا شُعَاعِ التَّوْرَاةِ أَوِ الْإِنْجِيلِ، أَوْ مِنْ مُقَدِّمَةِ نُزُولِ الْقُرْآنِ لَا نَفْسِهِ، وَأَمَّا الْقُرْآنُ الَّذِي تَوَلَّى اللَّهُ حِفْظَهُ مِمَّا هُوَ كَالنِّسْيَانِ، بِقَوْلِهِ «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» لَمْ يُنْقَصْ مِنْهُ شَيْئًا، وَلَمْ يُزَدْ فِيهِ شَيْئًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي ندين اللَّهَ تَعَالَى بِهِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ فِي الْآيَةِ مَا نَنْسَخْ مِنْ حُكْمِ آيَةٍ مَعَ بَقَاءِ تِلَاوَتِهَا، أَوْ نُنْسِهَا، بِأَنْ نَذْهَبَ بِهَا مِنَ الْقُلُوبِ، حَتَّى كَأَنَّهَا لَمْ تُنْزَلْ بِمَا نَرْفَعُهُ مِنْ حُكْمِهَا وَتِلَاوَتِهَا، فَأَتَى بِخَيْرٍ مِنْهَا مِنْ جِهَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ مِنْ حَيْثُ الزِّيَادَةِ فِي الْفَضْلِ وَالرَّشَادِ، أَوْ مِثْلِهَا فِي الْمَنْفَعَةِ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي الْخَمْرِ الْمُنْجَرِّ فِي سِيَاقِ تَعْدِيدِ النِّعَمِ «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا» هُوَ مِنَ الصَّلَاحِ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ دَاعٍ فِي الِاسْتِجْلَابِ، بِالنَّظَرِ لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ جَفَاوَةُ الْأَعْرَابِ، وَوَصْفُهُ لَهُ تَعَالَى فِيمَا بَعْدُ بِكَوْنِهِ رِجْسًا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ هُوَ مِنْهُ

أَصْلَحُ لَهُمْ بِالنَّظَرِ لِلْغَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهُمْ، وَلَوْ وَضَعْتَ كُلًّا مِنَ الْآيَتَيْنِ مَكَانَ أُخْتِهَا لَتَعَطَّلَتْ فَائِدَتُهُمَا مَعًا، وَحِكْمَةُ اللَّهِ تَأْبَى ذَلِكَ. وَالْمُلَخَّصُ مِنْ هَذَا هُوَ وُجُوهُ حَمْلِنَا النِّسْيَانَ فِي الْآيَةِ إِذَا وَقَعَ مِنَ النَّبِيِّ وَعُمُومِ الصَّحَابَةِ يَكُونُ بَعْدَ رَفْعِ الْحُكْمِ وَالتِّلَاوَةِ لَا قَبْلَ ذَلِكَ، لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ نِسْيَانِ أَكْثَرِ الْأَحْكَامِ، لِأَنَّهُ مَهْمَا تَثَبَّتَ فِي شَيْءٍ صَارَ الْحُكْمُ فِيمَا بَعْدَهُ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَتَسَنَّى وُقُوعُهُ فِي الْأَحْكَامِ بَعْدَ اشْتِهَارِهَا بَيْنَ عُمُومِ الصَّحَابَةِ. إِنَّمَا يَتَصَوَّرُ فِي اللَّفْظِ، وَأَمَّا كَوْنُ الشَّيْءِ مُحَلَّلًا أَوْ مُحَرَّمًا بَعْدَ ثُبُوتِ الْأَمْرِ بِهِ أَوِ النَّهْيِ عَنْهُ لَا يُتَصَوَّرُ ذُهُولُهُ عَنْ عُمُومِ الصَّحَابَةِ، وَزِيَادَةً أَنَّ الْمَنْسِيَّ جَاءَ أَكْثَرُهُ - إِنْ لَمْ نَقُلْ جَمِيعُهُ - مُنْحَصِرًا فِيمَا هُوَ كَالْوَعْظِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، حَسْبَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الرِّوَايَةُ لِمَنْ تَتَبَّعَهَا، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ «ص»: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ فَقَرَأَ: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ» وَمِنْ بَقِيَّتِهَا لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ سَأَلَ وَادِيًا مِنْ

مَالٍ فَأُعْطِيهِ سَأَلَ ثَانِياً، وَإِنْ سَأَلَ ثَانِياً فَأُعْطِيهِ سَأَلَ ثَالِثاً، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابَ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ، وَأَنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ غَيْرُ الْيَهُودِيَّةِ وَلَا النَّصْرَانِيَّةِ، وَمَنْ يَعْمَلْ خَيْراً فَلَا يُكْفَرْ.

وَمِثْلُهُ أَيْضاً مَا قَالَهُ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ مِمَّا نَزَلَ فِي قُتَلَاءِ بِئْرِ مَعُونَةَ أَنْ بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا إِنْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ مَسْلَمَةَ أَنَّ مِمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَلَا أَبْشِرُوا وَأَنْتُمُ الْمُفْلِحُونَ وَالَّذِينَ آوَوْهُمْ وَنَصَرُوهُمْ وَجَادَلُوا عَنْهُمُ الْقَوْمَ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أُولَئِكَ لَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَهَذَا وَمَا لَمْ يُنْقَلْ مَهْمَا ثَبَتَ نُزُولُهُ لَا مَسَاسَ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّخْصِيَّةِ الْبَتَّةَ. وَأَمَّا مَا كَانَ لَهُ تَعَالَى بِذَلِكَ فَيَكُونُ مِنْ قَبِيلِ مَنْسُوخِ التِّلَاوَةِ لَا الْحُكْمِ، وَمَعَ وُجُودِ النَّهْيِ عَنْ رَسْمِهِ وَالتَّعَبُّدِ بِذِكْرِهِ لَمْ يُذْهِلْ لَفْظُهُ مِنْ

عُمُومِ الأَفْكَارِ تَمَامًا، فَضْلًا عَنْ ذُهُولِ حُكْمِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ آيَةُ رَجْمِ الْمُحْصَنِ إِذَا زَنَى.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ أَنَّ خَالَتَهُ قَالَتْ: لَقَدْ أَقْرَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ «ص» آيَةَ الرَّجْمِ وَهِيَ الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ بِمَا قَضَيَا مِنَ اللَّذَةِ. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالرَّضَاعِ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ فِيمَا نَزَلَ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ، فَنُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، ثُمَّ نُسِخَ اللَّفْظُ وَبَقِيَ الْحُكْمُ. وَلَعَلَّكَ تَقُولُ مَا الْحِكْمَةُ فِي نَسْخِ اللَّفْظِ مَعَ بَقَاءِ الْحُكْمِ، وَهَلَّا بَقِيَ اللَّفْظُ لِتَجْتَمِعَ فَائِدَةُ الْحُكْمِ وَثَوَابُ التِّلَاوَةِ، فَأَقُولُ: إِنَّ سُقُوطَ اللَّفْظِ مَعَ بَقَاءِ الْحُكْمِ أَخْذٌ مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ بِأَوْفَرِ نَصِيبٍ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ بَقَاءَ الْحُكْمِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالرَّجْمِ فِيهِ رَدْعٌ لِلْمُولَعِينَ بِانْتِهَاكِ حُرْمَةِ الْفُرُوجِ مَهْمَا تَصَوَّرَ الْهَيْئَةَ الَّتِي تُقَامُ عَلَيْهِ، فَبَقَاؤُهُ أَبْلَغُ فِي التَّرْهِيبِ. وَأَمَّا حِكْمَةُ سُقُوطِهِ مِنَ التِّلَاوَةِ فَلِكَوْنِهِ أَفْضَحَ الْحُدُودِ وَأَثْقَلَهَا عَلَى النُّفُوسِ، فَحُذِفَ حَتَّى لَا يَشْتَهِرَ تَمَامَ الِاشْتِهَارِ

رَحْمَةً مِنْهُ تَعَالَى بِعِبَادِهِ، وَتَغْلِيبًا لِجَانِبِ السَّتْرِ. قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتَى عَلَيْنَا عُمَرُ وَأَنَا مُسْتَقْرِئٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةَ الرَّجْمِ، فَدَفَعَنِي فِي صَدْرِي، وَقَالَ: أَتَسْتَقْرِئُ آيَةَ الرَّجْمِ وَهُمْ يَتَسَافَدُونَ تَسَافُدَ الْحُمُرِ. وَفِي سُقُوطِ اللَّفْظِ وَالتِّلَاوَةِ مَا يُشْعِرُنَا أَيْضًا بِلُزُومِ التَّغَافُلِ عَنِ التَّسَارُعِ لِتَنْفِيذِهِ، مَهْمَا كَانَتْ مَنْدُوحَةٌ، حَسْبَمَا بَلَّغَنَا عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قِصَّةِ مَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ لَمَّا جَاءَهُ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، فَتَغَافَلَ عَنْهُ، ثُمَّ قَالَ: أَبِكَ جُنُونٌ؟ قَالَ: لَا، ثُمَّ أَخَذَ يَسْتَفْسِرُهُ، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ أَنْ قَالَ لَهُ: وَلَعَلَّكَ اسْتُكْرِهْتَ عَلَى ذَلِكَ، أَوْ رَأَيْتَهُ فِي مَنَامِكَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، حَتَّى أَرْسَلَ لِقَوْمِهِ: أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا، وَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُرِيدُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُ وَلَوْ أَدْنَى تَعْلِيلٍ، فَرُبَّمَا يَعْتَمِدُ فِي سُقُوطِ الْحَدِّ عَلَيْهِ، وَلَمَّا لَمْ تَكُنْ مَنْدُوحَةٌ عَنْهُ أَمَرَ بِرَجْمِهِ، وَهَكَذَا لَمَّا جَاءَتْهُ الْغَامِدِيَّةُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، فَرَدَّدَهَا، فَقَالَتْ: تُرِيدُ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ

مَاعِزاً، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَحُبْلَى، فَقَالَ: اذْهَبِي حَتَّى تَلِدِينَ، فَلَمَّا وَلِدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ، قَالَ: فَاذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْ بِهِ وَفِي يَدِهِ كِسْرَةٌ مِنْ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَا هُوَ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَأَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِرَجْمِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا، وَعَفَانَا مِمَّا ابْتَلَاهَا، وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا يُشْعِرُنَا بِحِكْمَةِ حَذْفِ الرَّجْمِ وَبَقَاءِ الْحُكْمِ. وَأَمَّا حَذْفُ اللَّفْظِ مِنْ جِهَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالرِّضَاعِ فَفِيهِ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ أَيْضاً، وَتَغْلِيباً لِجَانِبِ السَّتْرِ عَلَى اشْتِهَارِ الْحُكْمِ بِالتِّلَاوَةِ لِعُمُومِ الْبَلْوَى بِهِ، فَلَا تَجِدُ نَاجِيًّا فِي الْغَالِبِ إِلَّا وَيَجْهَلُهَا مِنْ نَسَبِ الرِّضَاعِ بِالنَّظَرِ لِمَا هُوَ كَالْخَمْسِ رَضَاعَةً عَلَى مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النِّسَاءُ مِنْ عَدَمِ الِاخْتِبَارِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ، إِذْ لَا يَعْتَنِي الْقِلَّةُ إِلَّا الْخُصُوصُ فَيَكُونُ بَقَاءُ الْحُكْمِ مِنْ أَجْلِهِمْ وَحَذْفُهَا الرَّسْمِ، رَحْمَةً بِغَيْرِهِمْ، وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً، فِي وُجُوهِ الْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ.

ثُمَّ إِنَّ مَا قَدَّمْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ هُوَ عَلَى قِرَاءَةِ ضَمِّ النُّونِ وَكَسْرِ السِّينِ وَإِسْقَاطِ الْهَمْزَةِ فِي نَفْسِهَا، وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الْفَتْحِ وَإِثْبَاتِ الْهَمْزَةِ

فَتَكُونُ مَادَّةُ نُنْسِهَا مَأْخُوذَةً مِنَ النِّسْءِ، وَهُوَ التَّأْخِيرُ لُغَةً، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: مَنْ سَرَّهُ النِّسْءُ فِي الْأَجَلِ - أَيِ التَّأْخِيرُ فِيهِ وَالزِّيَادَةُ فِي الرِّزْقِ - فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ.

وَعَلَى هَذَا فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ، فِي حَمْلِهِ عَلَى النِّسْيَانِ غَيْرَ أَنَّ النَّسْخَ حِينَئِذٍ يُحْمَلُ عَلَى الْمَرْفُوعِ حُكْمًا وَتِلَاوَةً، فَيَكُونُ مِنْ قَبِيلِ الْمَحْوِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ نَسَخَتِ الشَّمْسُ الظِّلَّ، وَالْمَنْسِيءُ عِبَارَةٌ عَنْ مَتْرُوكِ اللَّفْظِ، فَهُوَ مُؤَخَّرُ الْعَمَلِ بِهِ، غَيْرُ مَنْسُوخٍ فِي الْحَقِيقَةِ، وَمَا تُرِكَ اللَّفْظُ فِي الْمُصْحَفِ إِلَّا لِحِكْمَةٍ يَعْقِلُهَا الْعَالِمُونَ. ثُمَّ أَقُولُ إِنَّ الْفَهْمَ الْخَاصَّ لَا يَرَى لَفْظًا فِي كِتَابِ اللَّهِ مُعَطَّلًا بِالْمَعْنَى هُوَ لِمُجَرَّدِ التِّلَاوَةِ، حَسْبَمَا يَتَبَادَرُهُ الْفَهْمُ الْعَامُّ مِنْ مَنْسُوخِ الْحُكْمِ، بَلْ يَعْتَبِرُهُ مُحْكَمًا مِنْ وَجْهَةٍ، وَإِلَى ذَلِكَ الْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ»، أَيْ وَلَا آيَةَ إِلَّا وَهِيَ مُحْكَمَةٌ صَالِحَةٌ وَقْتًا مَا بِالنَّظَرِ لِتَغَيُّرَاتِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ. وَمِنْ هُنَا نَكَرَ أَبُو مُسْلِمِ بْنُ بَحْرٍ وُقُوعَ الْمَنْسُوخِ فِي الْقُرْآنِ، وَكَانَ يَقُولُ: هُوَ نَاسِخٌ غَيْرُ مَنْسُوخٍ. وَلَا تَظُنَّ أَنَّ قَوْلَهُ هَذَا

كان مخالفاً به الجمهور من جهة ما يتعلق بطرو الحكم على ما قبله، فهو أبعد من أن ينكر مثل ذلك، إنما كان يرى الأحكام المقيدة بالعلل والأزمنات هي باقية مهما علمنا وجه الحكمة في تأخرها، ومن المعلوم أنها ما أخرت عن العمل وتركت في المصحف إلا لحكمة أو لوقت استقر الله بعلمه. وهذا فيما لا نجد له صلاحية للعمل به الآن، وهو أقل القليل، ولا تتولع بما أدخله المكثرون في المنسخات، ظناً منهم أن ذلك من سعة معلوماتهم، حتى كادوا أن يحكموا على أكثر كتاب الله بالتعطيل. ومما يوجب الأسف، وينبي عن عدم انتباه المكثر أن أدخل في المنسخات قوله تعالى: «وقولوا للناس حسناً» ظناً أنها منسوخة بآية السيف، ولم ينتبه أنها جاءت في معرض حكاية فيما أخذ من الميثاق عن بني إسرائيل، ومنهم من أدخل في المنسوخات قوله تعالى: «فأينما تولوا فثم وجه الله» ظناً منه أنها منسوخة بآية التوجه إلى الكعبة، ولم يعلم أن قوله فثم وجه الله هو خبر من الله، ينبئ عن استواء الجهة بالنسبة لوجوده، وهذا

مِثْلُ ذَلِكَ يَحْتَمِلُ النَّسْخَ . وَمِنْهُمْ مَنْ أَدْخَلَ الْكَثِيرَ مِمَّا فِيهِ رَائِحَةُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْأَخْبَارِ ، مِمَّا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُ النَّسْخِ فِيهِ ، لِمَا يَلْزَمُ عَنْهُ مِنْ وُقُوعِ الْأَخْبَارِ ، عَلَى خِلَافِ مَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَالنَّظَرُ السَّدِيدُ لَا يَعْتَبِرُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَا جَمَعُوهُ ، إِنَّمَا يُرَى الْمَنْسُوخُ هُوَ عِبَارَةٌ عَلَى حُكْمٍ مِنَ اللَّهِ تَقَرَّرَ الْعَمَلُ بِهِ فِي زَمَنٍ لِحُكْمٍ أَوْلَى مِنْهُ فِيهِ ، وَمَهْمَا اسْتَدَارَ ذَلِكَ الزَّمَانُ كَهَيْئَتِهِ يَكُونُ هُوَ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِهِ . أَلَا تَرَى فِي زَمَنِنَا بِاعْتِبَارِ ضَعْفِنَا مَا هُوَ أَوْلَى بِهِ ، أَآيَةُ السَّيْفِ أَمْ آيَةُ الصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ ، حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ . وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّهَا مَا تُرِكَتْ فِي التَّنْزِيلِ إِلَّا لِمَنْ هُوَ عَلَى شَاكِلَتِنَا ، وَهَكَذَا لَوْ تَأَمَّلْتَ كِتَابَ اللَّهِ.

وَالَّذِي يُشْعِرُكَ بِذَلِكَ سِيرَةُ الدَّاعِينَ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ كُلَّ آيَةٍ فِيمَا نَزَلَتْ مِنْ أَجْلِهِ ، حَتَّى لَوْ أَرَادَتْ قَبِيلَةٌ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَمْنَعْهَا إِلَّا الصَّوْمُ رَمَضَانَ ، فَيَقُولُ لَهُمُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ » وَهَكَذَا لَوِ اسْتَصْعَبُوا تَرْكَ الْخَمْرِ مَثَلًا يُقَالُ لَهُمْ : « وَلَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » ، وَقِسْ عَلَى ذَلِكَ

فَإِنَّهُمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - عَلَى قَدَمِ النُّبُوءَةِ مِنْ جِهَةِ قِيَامِهِمْ بِدَعْوَةِ الْخَلْقِ حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ الْعَوَارِضُ الشَّخْصِيَّةُ وَالظُّرُوفُ الزَّمَانِيَّةُ . وَقَدْ بَلَغَنَا عَنْ بَعْضِ الدَّاعِينَ إِلَى اللَّهِ أَنَّهُ دَخَلَ قَرْيَةً فَوَجَدَ أَهْلَهَا لاَ خَبَرَ لَهُمْ بِمَفْرُوضَاتِ الصَّلاَةِ ، فَأَمَرَهُمْ بِهَا ، فَاسْتَصْعَبُوا شُرُوطَهَا ، فَأَمَرَهُمْ بِرَكْعَتَيْنِ بِغَيْرِ وُضُوءٍ ، ثُمَّ أَخَذَ فِي تَرْقِيَتِهِمْ ، إِلَى أَنْ أَخَذُوا بِالْغَايَةِ مِنْهَا . فَرِضْوَانُ اللَّهِ عَنْ سَادَتِنَا ، مَا أَشْفَقَهُمْ عَلَى الْعِبَادِ ، وَمَا أَحْرَصَهُمْ عَلَى الْهِدَايَةِ وَالرَّشَادِ .

لِسَانُ الرُّوحِ

يُعْتَبَرُ الْمَنْسُوخُ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ عَيْنُ النَّاسِخِ مِنْهُ ، بِالنَّظَرِ لِلْمَعْنَى الْقَائِمِ بِالذَّاتِ الْمُتَّحِدِ وُجُودُهُ فِيهِمَا ، فَالْمَنْسُوخُ قَبْلَ نَسْخِهِ كَانَ نَاسِخًا لِمَا قَبْلَهُ ، فَالْمَجَازُ نَاسِخٌ لِلْعَدَمِ ، وَالْحَقِيقَةُ نَاسِخَةٌ لِلْمَجَازِ ، وَعَلَيْهِ فَهِيَ الظَّاهِرُ فِيهِمَا ، أَيْ فِي الْفَاعِلِ بِصَلاَحِيَّتِهِ لِلْفَاعِلِيَّةِ ، وَفِي الْمَفْعُولِ بِصَلاَحِيَّتِهِ لِلْمَفْعُولِيَّةِ .

التَّفْسِيرُ : وَبِمُنَاسَبَةِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ جِبِلَّتُهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ

مِنْ جِهَةِ تَمَسُّكِهِ بِالتَّنْزِيلِ ، فَكَانَ مَا مِنْ آيَةٍ نُزِلَتْ إِلَّا وَتَمَكَّنَتْ مِنْ بَاطِنِهِ، وَأَخَذَتْ بِمَجَامِعِهِ ، فَهُوَ بِالطَّبْعِ يَأْلَفُهَا ، وَيُشْفِقُ مِنْ نَسْخِهَا كُلَّ الْإِشْفَاقِ حِشْيَةَ أَنْ لَا يُعَوِّضَهُ تَعَالَى بِمِثْلِهَا مِنْ جِهَةِ مَا يَرَاهُ لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ فِي الْقُلُوبِ ، فَجَاءَتْ آيَةُ النَّسْخِ تَشْجِيعًا مِنَ اللَّهِ لَهُ عَلَى أَنْ يَتَلَقَّى النَّاسِخَ بِأَبْلَغِ مَا تَلَقَّى بِهِ الْمَنْسُوخَ ، وَرُبَّمَا يُوجَدُ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِيَّاتِ مَا لَا يُوجَدُ فِي صِنْوِهِ ، حَسَبَمَا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ » أَيْ نَأْتِكَ يَا مُحَمَّدُ « بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا » . وَلَمَّا كَانَ الْوَهْمُ رُبَّمَا يَسْتَبْعِدُ وُقُوعَ الْخَيْرِيَّةِ بِاعْتِبَارِ امْتِزَاجِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِذَوْقِهِ وَارْتِشَافِهَا فِي لُبِّهِ أَتَاهُ تَعَالَى بِمَا فِيهِ تَقْرِيرٌ ، وَاسْتَلْفَتَهُ لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنِ اسْتِطْلَاعِهِ عَلَى قُدْرَةِ الْقَادِرِ ، فَقَالَ : « أَلَمْ تَعْلَمْ » يَا مُحَمَّدُ « أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . فَكَأَنَّهُ يَقُولُ أَلَيْسَ فِي عِلْمِكَ أَنَّ الْقُدْرَةَ الذَّاتِيَّةَ هِيَ الَّتِي أَوْجَبَتِ الِانْفِعَالَ فِي الْقُلُوبِ ، حَتَّى تَأَثَّرَتْ بِالْآيِ الْقُرْآنِيَّةِ ، وَلَمْ يَزَلْ رَبُّكَ مَوْصُوفًا بِالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَالَّذِي أَتَاكَ بِالْخَيْرِ هُوَ

قادِرٌ عَلَى أَنْ يَأْتِيَكَ بِخَيْرٍ مِنْهُ «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» زِيَادَةً فِي تَوْسِيعِ النَّظَرِ، لِيَنْطَرِحَ الْمُخَاطَبُ أَمَامَ تَصَرُّفَاتِهِ تَعَالَى انْطِرَاحَ الْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيِ الْقَاتِلِ، بِمُوجِبِ مَا يَعْتَبِرُهُ مِنْ خَلْقَةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ انْدِرَاجُ الْكُلِّ تَحْتَ حُكْمِهِ وَكَفَالَتِهِ، فَيَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ اخْتِيَارَهُ أَوْلَى مِنِ اخْتِيَارِ غَيْرِهِ، وَلَوْ لِنَفْسِهِ، كَائِنًا مَنْ كَانَ، فَيَتَلَقَّى النَّاسِخَ بِمَا تَلَقَّى بِهِ الْمَنْسُوخَ أَوَّلَ مَرَّةٍ. وَبِمُنَاسَبَةِ مُشَارَكَةِ الصَّحَابَةِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جِهَةِ تَأَثُّرِهِمْ بِوُقُوعِ النَّسْخِ خَشْيَةَ قَدْحِ الْمُعَارِضِ فِي الْقُرْآنِ. وَكَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّيْفِ شَارَكَهُمْ تَعَالَى فِي الْخِطَابِ احْتِرَامًا لِجَانِبِهِمْ، فَقَالَ: «وَمَا لَكُمْ يَا مَعَاشِرَ الْمُؤْمِنِينَ «مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ»، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ كُونُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْ أَمْرِ الْخَلْقِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ صَدِيقٌ وَلَا وَلِيٌّ حَمِيمٌ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ فَلَا تَرْكَنُوا لِمَدْحِهِمْ، كَمَا لَا تَتَأَثَّرُوا مِنْ قَدْحِهِمْ، فَاللَّهُ وَلِيُّكُمْ وَمُتَوَلِّيكُمْ لَا غَيْرُهُ. ثُمَّ إِنَّ الْوَلِيَّ لُغَةً هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْقَرِيبِ الْمُلَاطِفِ. وَمَهْمَا تَحَقَّقَتْ

وِلَايَتُهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ تَحَقَّقَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ. غَيْرَ أَنَّ الْوِلَايَةَ لَا تَسْتَلْزِمُ صِفَةَ النَّاصِرِيَّةِ فَالْمَعْنَى لَا يَلْزَمُ مِنَ الْوَلِيِّ نُصْرَةُ الْمَوْلَى، فَقَدْ لَا تَسْتَكْمِلُ فِي غَيْرِ اللَّهِ لِعَجْزِهِ عَنْهَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ النَّصْرَ قَدْ يَتَخَلَّفُ عَنِ الْوِلَايَةِ بِاعْتِبَارِ النَّظَرِ الْمُتَعَلِّقِ بِالظَّوَاهِرِ، وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَتَلَ رِبِّيُّونَ كَثِيرًا، وَكَوْنُهُ تَعَالَى وَلِيَّهُمْ هِيَ نِعْمَةٌ تَخُصُّهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَكَوْنُهُ نَاصِرَهُمْ نِعْمَةٌ تَخُصُّهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَلْقِ فَاسْتَجْمَعَتِ النِّعْمَتَانِ لَدَيْهِمْ، وِلَايَةُ الْبَاطِنِ وَنُصْرَةُ الظَّوَاهِرِ. وَلَمَّا كَانَتْ كَثْرَةُ النِّعَمِ قَدْ تُفْضِي بِمَنْ لَمْ يَتَثَبَّتْ إِلَى حُلُولِ النِّقَمِ، حَذَّرَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَمْرٍ ذِي أَهَمِّيَّةٍ، مُمْكِنِ الْوُقُوعِ، قَدْ يَتَسَاهَلُ فِيهِ الْإِنْسَانُ غَالِبًا، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُلْقَى عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ كَثْرَةِ الْمَسَائِلِ وَتَكَلُّفِهِمْ بِمَا هُوَ كَخَرْقِ الْعَوَائِدِ، وَرُبَّمَا كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ يَخْلُجُ فِي أَفْكَارِ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا مَرَّ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ.